رحلة ابن فضلان: حكاية الإنسان القديم في أوروبا

عبد الله بن خميس العلوي

عندما نتأمل الواقع الفكري للأمة الإسلامية نلحظ قيام النزعة المذهبية لدى كثير من قيادات التوجيه الديني وإلحاحهم على إبراز سمات التميز والتفرد بين الجماعات والمذاهب الإسلامية عوضًا عن إيجاد أرض مشتركة يتم خلالها الاتفاق والتلاقي. هنا يؤكد مصطفى حمزة في مقالته في مجلة التسامح - التفاهم العدد السابع «مقدمة من أجل تأصيل التسامح بين المسلمين»، أنه لكي نتجاوز هذه الأزمة لنصل إلى نقطة التسامح والتسامي على الخلافات، يتعين علينا أن نعود إلى تلك القواعد والأسس العلمية التي أصّلها في موروثنا الثقافي علماؤنا القدماء وهم يؤصلون التسامح، فنزيل عنها السجف والاستتار نتيجة لتراكم سنوات التخلف والانحطاط عليها، ونعيدها إلى الوعي وتعميمها على كل العاملين في الحقل الإسلامي؛ ليؤدي بدوره إلى تسامح مؤصل على علم وبصيرة.

إنّ الصورة الفنية والأدبية والعلمية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والدينية التي حملتها الرحلات المختلفة التي قام بها العديد من الرحّالة في العصور المتقدمة والعصور الوسطى والعصور الحديثة إلى أصقاع العالم لهي صورة يُمكن أن نعدها صورة الإنسان، ورحلة ابن فضلان لأوروبا هي نموذج حيٌّ ومقروء لأدب الرحلات، وقد استطاع الكاتب السوري شمس الدين الكيلاني أن يحلل هذه الرحلة من جوانب مختلفة، وذلك من خلال مقاله: «صورة أوروبا في رحلة ابن فضلان».

لعب أدب الرحلات على مر التاريخ الإنساني دورًا كبيرًا ومهمًا في معرفة تاريخ الأمم ومعرفة أحوالهم، وطريقة عيشهم ومعيشتهم من كافة الجوانب الحياتية الإنسانية، فقد نقل لنا من كتبوا في هذا النوع من الأدب الكثير من المعلومات التي تتعلق بتلك الشعوب، في حقبة زمنية معينة، وفي إطار جغرافي معين، وشعب معين، فمنهم من أفاض في الوصف، ومنهم من عبر عبور الكرام، ومنهم من أسهب وأطنب في شعب وترك آخر، فكانت رحلته مرجعًا أو قل مصدرًا من المصادر المهمة لمعرفة تاريخ وحياة الإنسان، وفي المقابل هناك من ظلم في وصفه، ومنهم من أحق الحق في قوله، فأدب الرحلات هو أدب الإنسان، وقد كتب في أدب الرحلات الكثير من الأدباء في المشرق والمغرب ومن هؤلاء هم ابن بطوطة، ماركو بولو، وابن فضلان، وابن خلدون وصمويل جونسون، ورفاعة الطهطاوي، وغيرهم من كتّاب هذا النوع من الأدب.

لقد حملت رحلة ابن فضلان لبلاد الترك والبلغار والصقالبة أهدافاً ظاهرة واضحة سطحية تحدث عنها كل من تناول الرحلة، وأهدافا مبطنة خفية، لم تظهر ولكن القارئ يعرف أنّها لم تكن للهدف التي من أجله أرسل المقتدر بالله تلك الحملة تحت قيادة ابن فضلان، أما الهدف الظاهر فقد ذكره ابن فضلان في بداية رسالته وهو: "لما وصل كتاب ألمش بن يلطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر يسأله فيه البعثة إليه ممن يفقه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام ويبني له مسجدًا وينصب له منبرًا ليقسم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له فأجيب إلى ما سأل" ولكن الناظر للسبب لا يجعله سببًا مقنعًا كي يجعل الأمير المقتدر يجيبه في فترة وجيزة جدًا، وجعله يجهز كل تلك الحملة وما شاكلها من تكاليف باهظة الثمن، فالدعاة يمكن أن يجلبهم من خلال معرفته للبلدان الإسلامية، فدخوله للإسلام لا شك أنّه كان على يد من يفقه الإسلام، غير أنّ هذا الطلب لامس رغبة المقتدر، وحبه في السيطرة على تلك البلاد، ودخولها في طاعته بدون حرب ولا قتال يُذكر، ولا حتى جيش مجند كان الأمير باستطاعته أن يجهزه بدون أن يكون هناك شرط، ولكن حب السيطرة، ومد نفوذ بني العباس كان هدفًا مبطناً لاقى في قلبه متسعًا، ثم لا ننسى أن الهدف كذلك متبادل من قبل ملك الصقالبة، ذلك أنّ دولة بني العباس كانت دولة قوية في عهد المقتدر، فرغبته في الانضمام للقوى الكبرى في تلك الفترة مناص له من حرب الممالك الأوروبية القوية، وهذا لامسناه من رده لابن فضلان، فيقول ملك الصقالبة: "قل له فو الله إني لبمكاني البعيد الذي تراني فيه، وإني لخائف مولاي أمير المؤمنين، وذلك أني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه فيدعو عليّ فأهلك في مكاني، وهو في مملكته" فتلاقت الرغبتان السياسيتان من قبل صاحبي سلطة حاكمة.

استطاع ابن فضلان في رسالته أن يعطينا أنثروبولوجيا متكاملة عن حياة الإنسان في تلك الأراضي الأوروبية، وفي تلك الحقبة الزمنية، فهناك شعوب مرّ عليها في أثناء رحلته، فوصفها بصفات سريعة وغير دقيقة وهذه الشعوب هم: الخوارزميون والترك والباشغرد، واقتصر على وصف أجوائهم بأنّها باردة حيث يقول: "لقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدة البرد، وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق نصفين لذلك"، كذلك وصف حرارتهم، وبعض السلوكيات الاجتماعية والدينية الخبيثة في طريقة دفنهم، كذا في تعاملهم المقزز والمروع مع المرأة، مثله تزوج الابن لعمته – زوجة أبيه- بعد وفاة أبيه، والعنصرية المقيتة التي يمارسونها في حياتهم، في تمييز الفقير والغني، والدكتاتورية التي تتاح للحاكم في تعامله مع شعبه، أما عندما جاء لوصف البلغار والروس والاسكندنافيين فقد توغل في وصفهم بدقة متناهية، بل في كل مناحي حياتهم حتى حياتهم الزوجية الخاصة، وكيفية الدفن، واختلافه من شخص لآخر، كذا نجده سلّط الضوء على نواحي الحياة الدينية الدقيقة، وكيفية الدفن معهم بشكل مقزز ومروّع، وحياتهم الليلية، ومدى وضاعة المرأة عندهم، كذا ذكر لنا حياتهم السياسية، ومعاملة الحاكم مع رعاياه، وعقوباتهم القاسية، من شق وحرق وشد للجسم، وتعاملهم مع المريض، كذا وجدناه في مواضع عدة يذكر لنا التدرج الوظيفي في الحكومة العليا للدولة الواحدة، حيث يقول عن نظام الحكم في الخزر: "يقال له خاقان الكبير، ويقال لخليفته خاقان به، وهو به يقود الجيوش ويسوسها، ويدبر أمر المملكة، ويقوم بها، ويظهر ويغزو، وله تذعن الملوك الذين يصاقبونه"، ولم يترك الجانب العمراني، وضخامة بنيانهم، منها نستطيع أن نقول إنّ ابن فضلان لم يترك جانباً إنسانيًا إلا وتحدث عنه، ووصفه لنا وصفًا دقيقًا جدًا.

ذهب ابن فضلان لهذه الرحلة حاملًا عنده مرجعياته الثقافية والدينية والاجتماعية، لذلك نجده في مواضع كثيرة يصف الأحداث التي لا تناسب التراكمات الذاتية التي نشأ عليها منذ نعومة أظافره بصفات قاسية، وهذا يجعلنا في حيرة من الأمر حول المرجعية التي اعتمد عليها ابن فضلان، علمًا أن ابن فضلان لم يجلس في تلك المنطقة غير وقت قليل جدًا، فرحلته كاملة لم تزد عن ٦ أشهر، فمتى ابن فضلان جلس وفهم وعرف أطباع هذه الشعوب في هذه الفترة الوجيزة من الزمن، وقد يكون القدر يسّر له أن يرى تلك الأحداث بأم عينيه، وبكل دقتها، في المقابل يجب أن نضع في رأسنا احتمال أن يكون ابن فضلان سمع وشرح له المترجم هرجر كل ذلك، وربما وجد مسلمًا متمسكًا بالإسلام وشرح لهم هذه السلوكيات التي أوردها، وهي احتمالات واردة وحقيقية.

ويبدو أنه وقعت مشادات ومناقشات فكرية ومجتمعية ونقدية حول اختلاف المجتمعات بين ابن فضلان وبين المترجم هرجر، وهذا قائم على التراكمات الثقافية للطرفين، وما حمله كل طرف عن الآخر، وقد التزم ابن فضلان في مواقف كثيرة بالصمت، وفي نواحي لم يتمالك نفسه في رده عليهم، من ذلك الموقف الذي حدث له عندما قدموا له الطعام فقال: "بسم الله" فضحك الجميع عليه، ولكنه مع هذا تمالك أعصابه، وقد هاجم هرجر العرب فقال: "أنتم العرب صارمون (جديون) أكثر مما يجب، تتذمرون طوال الوقت"، فيرد عليه ابن فضلان: "إنه شمالي أحمق، لا يعرف شيئًا عن اتساع العالم"، ويقول هرجر في هجوم آخر: "أنتم العرب ترغبون معرفة أسباب كل شيء، إن قلوبكم عبارة عن كيس كبير مملوء يطفح بالأسباب"، ويرد ابن فضلان: "يؤمن الشماليون بالخرافات، ولا يلجأون إلى حسن الفهم أو العقل أو القانون"، هذه الردود والمشادات بين طرفين حصلت عدة مرات في الرحلة، وهذا يعطينا أنه لا يوجد تقبل من الطرفين للآخر بالقدر المناسب الذي يؤهلهم أن يكونوا متناسقين مع بعضهم البعض.

اهتم المستشرقون الغربيون عامة والروس خاصة برسالة ابن فضلان، وأعطوها حقها من البحث والتقصي، والدراسة، وأهم هؤلاء هو المستشرق الروسي كراتشكوفسكي، وتعد دراسته لرحلة ابن فضلان هي أفضل الدراسات والقراءات التي نستطيع أن نقول عنها بأنها درس الرحلة من جوانب مختلفة، لم يقتصر هذا الاهتمام على الكتابة فقط، فقد تم تصوير الرحلة في عمل سينمائي ضخم، جسّد فيه شخصية ابن فضلان ورحلته وبعض الأحداث التي ذكرها في رسالته، إلا أنه للأسف الشديد ما وجدنا هذا الاهتمام موجودًا عند العرب بالقدر الكبير، حيث كانت الطبعة الأولى بالعربية في سورية عام ١٩٥٩م صدرت عن مجمع اللغة العربية بدمشق، وربما لأنها لا تمس تاريخهم بشكل مباشر، واهتمام الغرب عامة والروس خاصة بها لأنها تعطيهم تاريخ أمتهم الغابرة، ولكن هذا لا يجعلنا أن نهمل مثل هذا المخزون اللغوي والفني لأدب الرحلة، خاصة وأن الرحلة خرجت من بلاد عربية، ولأهداف إسلامية وعربية.

abdlla1991@gmail.com